لا صدق من غير مسؤولية جماعية

خطبة الجمعة للدكتور محمود أبو الهدى الحسيني في جامع العادلية بحلب بتاريخ 2007/5/18م

حين اعترض اليهود والنصارى على حكم تحويل القبلة من بيت المقدس إلى البيت العتيق، وأفرطوا في الجدال فقالوا: هل الأحكم والأحسن أن يتوجه الإنسان إلى بيت المقدس، أم أن يتوجه إلى الكعبة المشرفة؟ أنـــزل الله سبحانه وتعالى: ﴿سَيَقُولُ السُّفَهَاءُ مِنَ النَّاسِ﴾ والسفهاء أصحاب العقول الخفيفة، ﴿مَا وَلاَّهُمْ عَنْ قِبْلَتِهِمُ الَّتِي كَانُوا عَلَيْهَا ؟﴾ ثم أجاب جوابًا محكمًا يستطيع العاقل أن يُدرك وجه الرشاد والصواب فيه: ﴿قُلْ لِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ [البقرة: 142] فحين تتوجه إلى بين المقدس فأنت تتوجه إلى الله بأمره، وحين تتوجه إلى الكعبة المشرفة فأنت تتوجه إلى الله بأمره، فهل هذا الأمر يحتمل جدالاً، أو إطالة في الجدال؟

وأنـــزل بعدها بضع آيات تعقيبًا يشكل انطلاقةً من الحدث والمغزى إلى فائدة عامة كبيرة، فأنـــزل سبحانه قوله: ﴿لَيْسَ الْبِرَّ أَنْ تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَالْمَلاَئِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَآتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلاَةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ﴾ [البقرة: 177].

فكانت هذه الآيات انطلاقة من مغزى الحدث إلى فائدة عامة، فالمغزى وقوفٌ عند جزئية من جزئيات الأحكام التي تختص بحركة البدن، فانتقل منها إلى فائدة عامَّة يقول فيها للمؤمن: ليس البرَّ أن تدقِّق في مجرد حركة بدنك وأنت تمارس أو تتمثل عبادةً من العبادات.

لقد أقاموا الدنيا وما أقعدوها وهم يتحدثون في جزئية صغيرة من جزئيات العبادة: هل الأقوم أن أتوجه إلى المشرق أم المغرب؟

فالبدن يتوجه إلى بيت المقدس أو إلى البيت العتيق، لكن الروح في كلتا الحالتين تتوجه إلى من لا يحده زمان ولا مكان، إلى الذي تنـــزه عن الزمان والمكان.

المغزى: مدقِّقٌ في جزئية من الجزئيات الفردية في العبادات، مهمِلٌ في واقع سلوكه الشموليةَ التي من خلالها يكون فردًا ممتثلاً لأمر الله سبحانه وتعالى على كل الأصعدة.

دقَّقُوا في التوجه إلى المشرق والمغرب وظلموا الناس وأكلوا الربا، فدققوا في تلك الجزئية وغدروا، ومكروا، وكذبوا، وحرَّفوا كلام الله...

ما أريد أن أقوله هو أن نستفيد نحن في واقعنا من خلال دراسة هذا المغزى في واقعنا.

ادخلوا إلى مساجدنا لتجدوا فيها مَن يدقِّق في جزئيات فردية، فإذا انطلقت إلى سلوكه العام وجدته مُخِلاً، ووجدته لا يتبنى في سلوكه أو معاملاته أو أخلاقه أو شعوره... بأنه فرد من مجتمعٍ متكامل يخل بأحكام الله سبحانه وتعالى.

وآفة ذلك كلِّه، الذي وصلنا إليه في عالمنا الإسلاميِّ في هذه الأيام، هو حالةُ الفردية التي قطعتنا عن المسؤولية التي نحملها في بواطننا تجاه التجمع الإنسانيِّ أو الجماعة أو المجتمع، فديدُنا وغايةُ ما نصل إليه، بحسب التصور الشائع في الصلاح ومفهومه، أن نحافظ على صلاةٍ في المسجد، ونقف عند هذا المفهوم على أنه غاية ما يصل المتدين إليه، لكننا لو قرأنا قرآننا فسوف نجد فيه تفصيلاتٍ علميَّةً وعمليَّةً وسلوكيَّةً وخُلُقيَّةً وعَقَدية... يكون الإنسان فيها إمامًا، ويكون فيها مؤثرًا ومنتجًا ومغيِّرًا...

ومن هنا قال سبحانه:

- ﴿لَيْسَ الْبِرَّ أَنْ تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ﴾ أي لا ينحصر البرُّ في وقوفكم عند الصلاة وهيئاتها باعتبارها عبادةً فرديَّةً تتوجهون فيها بأبدانكم إلى القبلة وبقلوبكم إلى ربكم.

وكان النصارى يوجهون كنائسهم إلى مطلع الشمس، وكان اليهودُ يوجهون معابدهم إلى بيت المقدس الذي في المغرب.

- ﴿وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ﴾ أي ولكن البرَّ برُّ من آمن، ثم أتى بتفصيلات، فلا ينحصر البرُّ إذًا، بحسب مفهوم هذه الآية، في أن تكون صاحب عبادة فردية تولي وجهك نحو المشرق أو المغرب في صلاة، لكن البر المعتبر عند الله سبحانه وتعالى، لتكون فيه بارًّا لا تقف في صف العقوق، أن تمتلك مفردات.

فما هي هذه المفردات؟

- ﴿مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ﴾: وتلاحظون كيف يُعدد جزئياتِ الإيمان كلَّها، بمعنى أن الذي يؤمن بالله ولا يؤمن باليوم الآخر لا يُعتبَر برُّه، وأن الذي يؤمن بالله واليوم الآخر ولا يؤمن بالملائكة لا يُعتبَر برُّه، وأن الذي يؤمن بالله واليوم الآخر وبالملائكة ولا يؤمن بالكتاب لا يُعتبَر برُّه، والذي لا يؤمن بكلِّ ما ذُكر مع النبيين كلهم لا يُعتبَر برُّه...

فالآية تشير إلى شمولية الإيمان، وكلُّ جزئية أو ركنٍ يُبنى عليه سلوك، فإيمانك باليوم الآخر يبنى عليه سلوك، وإيمانك بالكتاب والنبيين يبنى عليه سلوك ومعاملات...

فالجزء الأول المعتبر من البرِّ في الإنسان جزءٌ تصديقيٌّ إيمانيٌّ يتفاعل في القلب، ثم هو بعد ذلك يفرز سلوكًا مؤثرًا في الجماعة، عدَّده بقوله:

1- ﴿وَآتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ﴾

2- ﴿وَأَقَامَ الصَّلَاةَ﴾

3- ﴿وَآتَى الزَّكَاةَ﴾

4- ﴿وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا﴾: الوفاء بالعهد والالتزام بشرطه.

ثم ذكر بعد ذلك حالَ الصبر في البأساء والضرَّاء وحين البأس على كل ما تقدم.

إذًا: الآية تقول لنا: يا من يدّعي التدين، إذا كنت تحسب أن التدين صلاةٌ وحدها فما فهمت من الدين شيئًا، فدينُك ينبغي أن يؤسَّس على قاعدة عقدية إيمانية تفرز سلوكًا.

السلوك الأول: ﴿وَآتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ﴾: ولاحظوا أنه لم يكتفِ بقوله: وآتى المال لمستحقيه، لكنه فصّل ليؤكد على ما ذكرتُه من ملاحظة الشمولية، بأن لا تكون ربعًا أو ثلثًا.

- ﴿ذَوِي الْقُرْبَى﴾ فلم يُهمل قرابته.
- ﴿وَالْيَتَامَى﴾ ولهم حقٌّ على المجتمع لأنهم في بلاء فقدان الآباء.
- ﴿وَالْمَسَاكِينَ﴾ لأنهم في بلاء الفقر والفاقة.
- ﴿وَابْنَ السَّبِيلِ﴾ ولو كان غنيًّا في بلده، لكنه انقطع عن ماله وهو في بلاد المسلمين، فوجب على المسلمين أن يكونوا كفيليه.
- ﴿وَالسَّائِلِينَ﴾ أي الذي يسأل عن حاجة.
- ﴿وَفِي الرِّقَابِ﴾ لتحرير الإنسان من الرقّ.

فأفرز هذا الإيمانُ شعورًا بالمسؤولية الجماعية، فلم ينسَ قريبًا، ولا يتيمًا، ولا مسكينًا، ولا عابر سبيل، ولا سائلاً، وأنفق ماله لتحرير الإنسان... فعاش حس المسؤولية في المال الذي يتملكه تملكًا خاصًا.

والمصلي الذي يجلس في صومعته أو مسجده ربما يُعفي نفسه من مسؤولية الجماعة، خاصة حين يتبنى العزلة والانقطاع عن الناس، فيفصل بينه وبين المجتمع، لكن الآية هنا تصيح به: لستَ بارًّا، لست صاحب برّ، فللمجتمع والجماعة والتكوين (كبيرًا كان في تجمعه أو صغيرًا) عليك حقّ.

فإذا تحققت بالإيمان، ثم أفرز إيمانُك بعد ذلك شعورًا بالمسؤولية الجماعية من حيث المال الذي تملكه، ثم تعيد نفعًا كبيرًا منه على من حولك، إذًا: خرجت إلى أول درجة من درجات البرّ.

السلوك الثاني: ﴿وَأَقَامَ الصَّلَاةَ﴾: وقد أشرت في الأسبوع الماضي إلى معنى إقامة الصلاة الروحانيّ الذي يعني تحقق الصلاة بمعانيها ومبانيها، لكنني سأشير اليوم إلى معنىً آخر، وهو: "وأقام الصلاة في الناس"، الذي هو جزءٌ من المسؤولية الجماعية، فهاهنا لا يشير إلى قضية معنوية، إنما يشير إلى مسؤولية سلوكية جماعية، ودليلي في هذا أحاديثُ عن رسول الله صلى الله عليه وسلم في معنى "أقام الصلاة".

قال صلى الله عليه وسلم: (**سَيَكُونُ أُمَرَاءُ، فَيَعْرِفُونَ وَيُنْكِرُونَ**، أي منهم من يكون متبنيًا للمعروف، ومنهم من يكون متبنيًا للمنكر، **فَمَنْ كَرِهَ منكم**، أي يا أمة الإسلام، **بَرِئَ، وَمَنْ أَنْكَرَ سَلِمَ، وَلَكِنْ مَنْ رَضِيَ وَتَابَعَ**، أي فإنه هالكٌ مع الهالكين، **قَالُوا: أَفَلا نُقَاتِلُهُمْ؟ قَالَ:لا، مَا أَقَامُوا الصَّلاة**).

وهل معنى "أقاموا الصلاة" هنا صلّوا؟

لا، بل المعنى أي كانوا أسبابًا لإقامة الصلاة في المجتمع، وحماية إقامة الصلاة في المجتمع، فهاهنا أمراءُ أقاموا الصلاة، والأمير واحد، لكن المعنى أقاموا الصلاة في المجتمع، فأوجدوا تكوين الجماعة في المجتمع في حيثية الصلاة واعتباراتها، وقاموا بحماية هذه الإقامة.

وفي رواية أخرى: (**يَكُونُ عَلَيْكُمْ أُمَرَاءُ تَطْمَئِنُّ إِلَيْهِمْ الْقُلُوبُ وَتَلِينُ لَهُمْ الْجُلُودُ، ثُمَّ يَكُونُ عَلَيْكُمْ أُمَرَاءُ تَشْمَئِزُّ مِنْهُمْ الْقُلُوبُ وَتَقْشَعِرُّ مِنْهُمْ الْجُلُودُ، قِيْلَ: أَفَلا نُقَاتِلُهُمْ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ قَالَ: لا، مَا أَقَامُوا الصَّلاةَ**).

وإقامة الصلاة لا تتوقف عند مفهوم إقامة الأمراء لها، إنما من معانيها المساهمةُ في الإقامة الجماعية التي هي وظيفة من وظائف الأمة، ومن وظائف المجتمع، ومن وظائف الشعب، ونتلمس هذا في كتابه صلى الله عليه وسلم لمالك بن أحمر، حيث قال: (**بسم الله الرحمن الرحيم، هذا كتابٌ من محمد رسول الله لمالك بن أحمر ولمن اتبعه من المسلمين، أمانًا لهم ما أقاموا الصلاة**).

وكان النبي صلى الله عليه وسلم يوصي جيوشه التي كانت تخرج فيقول: (إذا أتيتم إلى قرية فسمعتم منها الأذان فابتعدوا عنها).

فهاهنا "**أَقَامُوا الصَّلاةَ**" لا تعني التحقق بمعاني الصلاة ومبانيها، بمعنى الخشوع في الصلاة، والاطمئنان فيها، وملاحظة معانيها... لا، إنما هاهنا معنىً يتعلّق بالسياسة الشرعية، وبالسلوك الجماعيّ.

إذًا: أقاموا الصلاة فأعلنوا من خلال إقامتها في مدينتهم أنهم أصحابُ انتماءٍ إلى الإسلام، وأصحابُ عبودية لله، وأصحابُ اقتداء بالإمام الأعظم سيدنا محمد عليه الصلاة والسلام.

إذًا: هاهنا "أَقَامُوا الصَّلاةَ" لا تأتي بمعنى الخشوع والطمأنينة والتحقق بمعاني الصلاة واستشعار أحوالها، إنما هي هاهنا بمعنىً يتعلّق بالسياسة الشرعية السلوكية التي يكون الأمراءُ جزءًا منها، والناسُ جزءًا آخر، حيث وُجِدت الصلاة شعارًا، فوُجِدت في أذانها، ووجدت في جماعتها وتجمّعها، ووجدت في إعلانها، فكانت شعيرةً مُعبِّرةً عن أن هذا البلد هو بلد الصلاة، وهو بلد العبودية لله، وهو البلد الذي يُقال فيه في الصلاة: "**السلام عليكَ أيها النبيّ**"، والنبي هاهنا هو سيدُنا محمدٌ صلى الله عليه وسلم، فمع أن الأنبياء كُثُر، لكنك في الصلاة تقول: "**السلام عليكَ أيها النبيّ**"، فهي تحيةٌ عسكرية للإمام الأوحد، الذي هو إمام الأرض، والذي جُعلت له الأرض مسجدًا، والذين لا يستشعرون هذا المعنى، فهذا شأنهم، لكننا نستشعره.

ومع معرفتنا أن سيدَنا محمدًا صلى الله عليه وسلم هو الإمام، لكننا ننظر إليهم بعين الشفقة، لأنهم حُرِموا من ذلك الاتباع، فلا نُكرِه أحدًا على الإيمان، لكننا نعتزُّ بانتمائنا، وحتى في صلاتنا نُحيِّي تحيةً عسكريةً إمامَنا محمدًا صلى الله عليه وسلم.

إذًا: "**أَقَامُوا الصَّلاةَ**" هاهنا إنما هو معنى سلوكيٌّ عامّ.

إذًا: البِرُّ لا يكون بأن تجلس فتُصلّي، وتستشعرَ أنك سليمُ القلب، وأنك طائع البدن... إنما البرُّ كما يُقرر القرآن: آمنتَ فتعمَّرَ قلبُك بالإيمان، ثم أنتج أولاً مسؤولية مالية جماعية، وأنتج ثانيًا مشاركة في العبادة الجماعية لإعلان الشعار والانتماء.

السلوك الثالث: ﴿وَآتَى الزَّكَاةَ﴾: وتعلمون أن الزكاة تشريعٌ فرضه الله تعالى ليكون داعمًا للجماعة.

فإذًا: هناك قال: ﴿**وَآتَى الْمَالَ**﴾ فإنه يستنهض الهِمم لنشعر شعورًا جماعيًّا ولنتكافل، لأن الزكاة فُرضت فرضًا ولها مصارف محددة، أما ﴿**وَآتَى الْمَالَ**﴾ فإنها تُقيم نهضة، وعليها تقوم قواعد النهضة.

والمجتمع الذي يُنفق من ماله خارج دائرة الزكاة تُرجى له نهضة، أما المجتمع الذي لا يُنفق من ماله خارج دائرة الزكاة فلا تُرجى له نهضة.

وقد تحدّثتُ فيما سبق وقلت: لقد زُرت بلدانًا كثيرة، ورأيت في بلاد غير إسلامية من يُعطي الكنيسة 12% من دخله، وتؤخذ من حسابه الخاص دون مراجعته، ورأيت في بلاد إسلامية مَن يدفع من دخله 5%: 2.5% للزكاة و2.5% خارج دائرة الزكاة، وهو يندفع إلى ذلك اندفاعًا، لا يؤخذ منه أخذًا، إنما يُسابِق غيره، وهذا شهدته بأم عيني، وفهمت لماذا قامت النهضة الجماعية في ذلك البلد المسلم.

﴿وَلَا تُؤْتُوا السُّفَهَاءَ أَمْوَالَكُمُ الَّتِي جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ قِيَامًا﴾ [النساء: 5]

فإذا لم يُجمع المال بهذه النسب خارج دائرة الزكاة، لا يمكن أن تكون هناك مشروعات بَنَّاءة، وهذا هو المجتمع المُهمِل لـــ: "**وَآتَى الْمَالَ**".

وانظروا كيف قدّمها الله قبل أن يذكر الزكاة، فلو أنه ذكر الصلاة ثم ذكر "وَآتَى الْمَالَ"، لقلتَ: إنها فريضة ثم جاء بالنافلة بعدها، لكنه ذكر هنا "وَآتَى الْمَالَ" قبل الفريضة ليُبيّن لك أن أهميتها لا تقِل عن فريضة الزكاة بل تزيد.

السلوك الرابع: ﴿وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا﴾: المسلمون عند شروطهم.

حين يفشو في المجتمع الوفاء بالعهد والصدق والالتزام بالشرط... عند ذلك يتحول إلى مجتمع أمانة، وحينما يُخِلُّ المسلمون بشروطهم، فإنهم لا يُعبِّرون عن هويتهم.

﴿وَمِنْهُمْ مَنْ عَاهَدَ اللَّهَ لَئِنْ آتَانَا مِنْ فَضْلِهِ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ الصَّالِحِينَ، فَلَمَّا آتَاهُمْ مِنْ فَضْلِهِ بَخِلُوا بِهِ وَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُعْرِضُونَ، فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِي قُلُوبِهِمْ إِلَى يَوْمِ يَلْقَوْنَهُ بِمَا أَخْلَفُوا اللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ، أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ وَأَنَّ اللَّهَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ﴾ [التوبة: 75–78].

وبعد أن ذكر المفردات الأربعة هذه، ذكر الحال الذي يضمن استمراريتها، فما أكثر ما ينتفض الناس للإنفاق حين يعظهم واعظ، أو حينما يشعرون في موسمٍ ما بحالٍ إيمانية! لكن حينما يزول ذلك الحال، سرعان ما يتغيّر الإنسان، لذلك جاء بما يضمن الاستمرارية والثبات، وهو الصبر على ما سبق.

إذًا: إيمانٌ أفرز هذه الأربعة، ثم سوَّر الأربعة بسور، فقال:

- ﴿وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ﴾ وهذا يجعلك ثابتًا على الإيمان، وثابتًا على المفردات الأربعة التي ذكرها، فلا تتخلّف عنها يومًا من الأيام.

- ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا﴾ ليس الذي جلس في صومعته منقطِعًا عن المسؤولية الجماعية.

فهؤلاء الذين تحمَّلوا المسؤولية الجماعية هم أهل الصدق، أما الذين فهموا الدين عبادةً وصِلة بين العبد وربّه منقطعة عن الناس والمجتمع، فما صدقوا، وهؤلاء – وإن تخيّلوا أنهم أصحاب تديُّن – ما صدقوا.

– ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ﴾.

وهذه الآية تُحدث زلزالاً فيمن يعيش الفردية، وتُغيّر حاله، لكن الذي يبقى مُصرًّا على فرديته، والذي يبقى مصرًّا على صومعته، وعلى أن يكون في عباداته منقطِعًا عن معاملاته العامة، ويريد أن يفهم التديّن على أنه حالة فردية، هذا لابد له أن يقرأ الدرس مرارًا وتكرارًا، فلعله في يوم من الأيام يفهم معنى البرّ.

﴿لَيْسَ الْبِرَّ أَنْ تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آَمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآَخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَآَتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآَتَى الزَّكَاةَ وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ﴾ [البقرة: 177].

رُدَّنا اللهم إلى دينك ردًّا جميلاً، واجعلنا ممن يستمعون القول فيتبعون أحسنه.

أقول هذا القول وأستغفر الله.